الآثار المصرية

بين يدي الملك والدين

بقلم البحاثة الكبير

احمد زكى باشا

تحية الى روح العالم المتفرد بعلم الآثار المصرية
المرحوم احمد كمال باشا

نشرت في مجلة الهلال في الاجزاء ١ و٢ و٣ و٤
من المجلد الثاني والثلاثين

مطبعة الهلال

بمصر

الآثار المصرية

بين يدى المُلك والدين

بقلم البحاثة الكبير احمد زكي باشا

يقولون إن التاريخ « أبو العبر » . ولكننا اذا استعرضنا صفحاته ، رأينا الملوك والامراء جاهدين في طمس جلائل الآثار ، جانحين الى الوسائل المشروعة وغير المشروعة لتخليد ذكراهم ، دون سواهم .

ليت شعري ! أتُراهم غفلوا أم تغافلوا عن صيرورتهم الى الفناء ، ولو بعد حين ؟ أم هم نسوا أو تناسوا ان مَن سيخلفهم قد يعاملهم بمثل ما قدمت أيديهم في حق أسلافهم السابقين ؟

لكن « المُلك عقيم » و« الأثرة داء دفين » . « وان الانسان ليطغى إن رآه استغنى ! »

كان السبق في هذا المضمار لارباب الاديان . فاننا رأينا القائمين بكل نحلة جديدة ، يواصلون الليل بالنهار في تبديد معالم الملة السابقة ، لينفردوا بالسيطرة على القلوب ، وبالسلطان على الضمائر . بل اننا شاهدنا آثار هذا التدمير في الشيع المنبعثة عن دين واحد وملة واحدة . لا فرق في ذلك بين الشرق والغرب ، ولا بين الزمان القديم والعهد الحديث ، ولا بين النصرانية والاسلام . فتلك عادة فطر الله الناس عليها « وان تجد لسنة الله تبديلا . »

- ١ -

لا أتولى الكلام على ما كان من رعمساس (رمسيس الاكبر) فخر الفراعنة الامجاد ، ولا من سلك سبيله من ملوك مصر المتقدمين ، ولا من سعى سعيهم في الامم الاخرى . فذلك خارج عن دائرة البحث التي عكفتُ على الجولان فيها ، وانقطعت للطواف حولها . وخليق بالعاقل الرشيد ان لا يتكلم الا بما يعرف ، وان لا يكتب الا فيما يدري .

لذلك كان الواجب ان أقتصر على احاطة القارىء علماً ببعض ما حدث من هذا الضرب في أيام الاسلام ، وعلى ضفاف النيل .

١ ـ دولة الخلفاء الراشدين

فهذا الخليفة عثمان بن عفان : عَفَّى على أعجوبة الزمن في أرض اليمن ، أعني قصر غُمْدان ، المعروف أيضاً بصومعة غمدان ، الذي ضربت بجلالته وفخامته الامثال . كان هيكلا يعبدون فيه الزُّهَرة ، إلٰهة الجمال .

ثم عطف عثمان على المدينة المنورة ، فقوّض ماكان بها من الآطام .

٢ ـ الدولة الاموية

وهذا معاوية بن ابي سفيان : دمّر عامله قيس بن الهيثم (سنة ٤١ هـ) بيت النوبهار ، وما أدراك ما بيت النوبهار ! كانت الفرس تحجه وتكسوه الحرير ، معارَضة للكعبة المعظمة . وكانت سدانته الى الغطاريف البهاليل من آل برمك الكرام ، قبل أن يتشرفوا بالاسلام .

وهذا زياد بن أبيه : هدم كل ما بناه ابن عامر من قصور ومصانع ، لكيلا يبقى له ذكر في الخافقين .

٣ ـ الدولة المروانية

وهذا يزيد بن عبد الملك : كتب في سنة ١٠٤ هـ لعامله بمصر (حنظلة ابن صفوان) بكسر الاصنام والتماثيل . فكسرت كلها ومحيت التماثيل .

فكان ذلك الامر المنكر بداية لما حصل بمصر فيما بعد من التمثيل بالتماثيل وتدمير الآثار وتخريب المباني الجليلة ، على ما سترى بعضه في كلامنا عن الدولة الطولونية ، فالايوبية ، فالمملوكية .

٤ ـ الدولة العباسية

لما أفضت الخلافة لبني العباس ودانت لهم الدنيا ، كان اكبر همهم تخريب ما بناه بنو أمية وبنو مروان من المدائن والمصانع بالشام ، مثل الرصافة وغيرها .

وانظر الى ما صنعه المنصور أبو جعفر . فقد فعل بايوان كسرى أبرويز ما فعل ، ثم رجع عنه بالخيبة والفشل . ذلك انه حينما عزم على بناء بغداد ، استشار وزيره خالد ابن برمك في هدم الايوان وإدخال آلته (أنقاضه) في عمارة بغداد . فنهاه . فقال الخليفة : أبيتَ الا التعصب للفرس ! ـ قال الوزير : ليس الامر كما ظن امير المؤمنين ، ولكنه أثر عظيم يدل على أنّ ملةً وديناً وقوماً أذهبوا مُلك بانيه ، لَدِين ومُلك عظيم ! فلم يصغ الى رأيه ، وأمر بهدمه : لكنه وجد النفقة عليه أكثر من الفائدة بنقضه ، فتركه . فقال خالد : الآن أرى يا أمير المؤمنين ، أن تهدمه ،

لئلا يقال انك عجزت عن خراب ما عمّره غيرك ، ومعلوم ما بين الخراب والعمارة !

فلم يلتفت اليه ابو جعفر المشهور بالمحاسبة على الدرهم والدنق والدونيق .

وهل أتاك حديث المهدي ؟ دخل الروضة النبوية المطهرة ، بالمدينة المنورة ، عام ١٦٩ هـ ، فوقع بصره على اسم الوليد بن عبد الملك ، الذي بنى جامع دمشق ، والمسجد الاقصى وقبة الصخرة ببيت المقدس . رآه منقوشاً على طراز الحرم ، لانه جدد بناءه على أفخم مثال . غضب المهدي غضبة عباسية ، وصاح صيحة منكرة : « أرى اسم الوليد الى اليوم ! » ولم يلبث أن دعا بكرسي ، وما برح مكانه حتى نقشوا بحضرته اسمه على الحجارة في الطراز ، مكان اسم الخليفة الاموي . أراد بهذه الفعلة أن يوهم الخلف بانه هو الذي جدد بناء الروضة الشريفة ، وما درى انه ، مع جلالة قدره ، قد كذب على الله وعلى المصطفى وعلى التاريخ !

ونظير ذلك ما فعله المأمون بالحرم الكبير ، و أمره معروف . لكن الذي لا يعرفه الاكثرون ، هو ما فعله بقبة الصخرة المعظمة في بيت المقدس . وفد عليها في رحلته الى مصر فرأى ما بهره مما لا يزال الى الآن فتنة للناظرين وأعجوبة للعالمين . فتشبه بجده المهدي في فعلته بالروضة النبوية . وذلك انه أمر برفع قطعة من القاشاني عليها اسم « عبد الملك بن مروان » وأمر بتقليد قاشاني يشابهها ، وطبخ اسمه عليها ثم وضعها بدل التي انتزعها . واستراح خاطره وظن ان السرقة قد تمت له على ما يشتهي ، وان الاجيال الآتية ستتخبل وتتخيل انه هو الذي بنى هذه العمارة الفائقة بل هذا الأثر الوحيد في المشرقين والمغربين . وقد أعماه الله عن اتمام الخديعة ، فلم يتفطن الى أواخر الحجارة المرقوم عليها سنة العمارة . فبقيت الكتابة الأثرية الى يومنا هذا (كما شاهدتها بعيني) شاهداً على جنايته الادبية وبرهاناً قاطعاً على تزويره (انظر صورتها الى اليسار)

والفضل في اكتشاف هذا التزوير يرجع الى المستشرق الفرنساوي

بنى هذه القبة عبد الله عبد [الله الامام المأمون] امير المؤمنين في سنة اثنين و سبعين

الثلاث الكلمات المحصورة بين قوسين هي المستجدة . ولونها في الحجر يخالف لون اخواتها

«كارمون جانو» Clermont Ganneau . فهو أول من تفطن اليه ونبه عليه ، وكتب في ذلك فصلا بجرنال آسيا (سنة ١٨٨٧ ص ٤٨٤) وضمنه صورة الكتابة منقولة بالفتوغرافية . وها قد نشرناها اليوم بين قراء العربية لتكون لهم فيها عبرة ، ولتبعث فيهم الغيرة الى افادة الناس بما يهتدون اليه من هذا النوع من الابحاث .

أما اخوه المعتصم ، فقد أتى على بيت النار المعروف باسم «كاوسان» . فدكّه دكّاً ، وجعله قاعاً صفصفاً ، بعد أن كان من أعظم هياكل الفرس ، يعبدون فيه الشمس ، ولهم فيه شعائر معلومة ومناسك محترمة .

— ٢ —

وما لنا والتمادي في الابتعاد عن وادي النيل ، وهو مربط الفرس وبيت القصيد . فلنشيرنّ الى شيء مما وقفت على حدوثه في بلادنا من هذا القبيل !

أقام بطليموس ملعباً بالاسكندرية ، بقي عامراً ، زاهياً ، زاهراً ، الى أن ظهرت النصرانية ، فاحترق على عهد البطريرك بطرس الاول الذي جلس على عرش البطريركية سنة ٣٠٠ الميلاد .

وقد انتهت دولة البطالمة [١] بالملكة كيلوبطرة [٢] الشهيرة بجمالها ودلالها . ولا يعنينا من الاشارة اليها هنا سوى انها شيدت بالاسكندرية أيضاً هيكلاً بديعاً رائعاً باسم الاله «زُحل» Saturne ، وانها جعلت له فيه تمثالا من نحاس أسود . وكان أبناء الاسكندرية وأهل مصر يعبدونه ويعملون له عيداً في ١٢ من شهر هاتور . وكان اليونانيون يحجونه من سائر الاقطار ويذبحون له مع المصريين ذبائح لا تحصى . فلما ظهرت النصرانية ، جعلوا هذا الهيكل كنيسةً نرى من الواجب أن نقص عليك خطبها الذي كان بعد سنة ٣١٣ م .

ذلك ان الاسكندروس ، بطريرك الاسكندرية المشهور ، صاحب المواقف الجليلة ، أراد كسر ذلك التمثال . فمنعه العامة وقاموا في وجهه قومة رجل واحد . فقد كانوا ، بعد تنصرهم ، لايزالون يقيمون موسمهم الوثني في شهر هاتور ، ويذبحون

---

(١) يسميها كثير من الكتاب «البطالسة» . وهو خطأ ، لان السين ليست من بنية الكلمة ، بل من علامات النحو في اللغة الاغريقية ، بخلاف الميم فهي أصلية . وعلى ذلك قول كتاب الحروب الصليبية في الاسماء العربية البحتة : سلادينوس ، نورادامُوس ، سفادينوس ، موفكدينوس (يريدون : صلاح الدين ، نور الدين ، سيف الدين ، موفق الدين)

(٢) ويسميها كتاب العرب المتقدمون : قلاوفطرة ، كلوباطرة .

لذلك التمثال تلك الذبائح الكثيرة . وفي ذلك من المغانم والمكاسب، وأسباب القصف ومجالس اللهو ما فيه ، مما يأبى العامة التحول عنه ، وان ارتضوا تغيير الدين . وقف البطريرك حائراً بين ارضاء الشعب وبين واجب الدين الجديد . ففتق له ذهنه حيلة تلطف فيها لإقناع العامة بالرجوع عن الضلال القديم ، دون أن يفقدوا مزية من مزايا الكسب والخلاعة . فتربص حتى اقترب الميعاد الموقوت ، فجمع الناس في الكنيسة ووعظهم بعبارات بليغة ملكت عليهم ألبابهم واستهوت عقولهم ثم أتى على ذكر الصنم فقبح عبادتهم له بعد أن اهتدوا الى الصراط المستقيم الذي هداهم اليه المسيح . وتخلص بحسن البيان الى تقبيح الاستمرار على عبادة الاوثان . ثم انتهى بوجوب البقاء على هذا العيد وهذا الاحتفال ، ولكن باسم ميكائيل رئيس الملائكة الذي يشفع فيهم عند الله . وبهذه المثابة ينالون حظهم من الدنيا كما جرت به عادتهم ، ويحصل لهم في الآخرة فوز عظيم ورضوان ليس بعده رضوان . قال لهم : « ذلكم ، يا أبنائي ، خير لكم من عمل العيد للصنم . فلن يتغير عمل العيد الذي جرت به عادتكم ، ولن تبطل ذبائحكم فيه » . فرضي الناس بهذا التحويل لانه لا يحولهم عن أمور دنياهم ولا عن مشتهياتهم ، بل يفيدهم في أخراهم . ولذلك وافقوا البطريرك على كسر التمثال . فكسره وأحرقه وعمل بيته كنيسة على اسم ميكائيل (ميخائيل) . ولم تزل هذه الكنيسة عامرة مقامة الشعائر ، الى أن قدمت جيوش الفاطميين فاحرقوها سنة ٣٥٨ للهجرة . ثم اعيدت الكنيسة ثم نالها الهدم والدمار . ومع ذلك ، فقد استمر عيد الطاهر ميخائيل عند النصارى على عهد الاسلام ، فهو يقام بديار مصر في كل عام الى الآن . ومحل هذا الهيكل في يومنا هذا هو دار البلدية بالاسكندرية

ولقد ذكرنا ما حدث أيامَ يزيد بن عبد الملك من كسر الاصنام والتماثيل في سنة ١٠٤ هـ . ونأتي الآن على ما حصل بمصر ، دولة فدولة الى آخر عهد المماليك .

ا ـ الدولة الطولونية

كان بعين شمس (أعني هليوبوليس القديمة التي هي الان من ضواحي القاهرة) تمثال فرعوني من أبدع ما خلفه أجدادنا الاقدمون . كان ارتفاعه بمقدار الرجل المعتدل الخلقة ، وكله من حجر الكدان الابيض . ولقد بلغ من إحكام الصنعة واتقان النحت ، أن من استعرضه يتخيل انه انسان ناطق . ولقد وصل خبر هذه الاعجوبة الفرعونية الى مسامع أمير مصر وأول سلاطين الاستقلال فيها على عهد

الاسلام ، وأعني به أبا العباس احمد بن طولون . فاراد أن يراه ولكن خازنه نهاه. وكان هـذا الخازن قبطياً ـ على ما أظن ـ واسمه « ندوسة » . قال لمولاه : « ما رآه وال قط ، الا عُزِل » . فلم يعبأ ابن طولون بهذا التحذير بل كان فيه اغراء لنفسه الكبيرة التي تعودت الاقدام على عظائم الامور . فركب في موكبه الحافل ، ومعه خازنه . حتى اذا حلَّ ركابه بعين شمس ، وقف أمام التمثال يتأمل محاسنه الفنية ويعجب من محاكاته للطبيعة ، الى ما فيه من دقة الصناعة المنقطعة القرين . ثم أمر القطاعين باجتثاثه من الارض . ولم يزل واقفاً حتى لم يبق من ذلك الأثر ، عين ولا أثر . وحينئذ التفت الى ندوسة ، وقال : « من ذا الذي صرف صاحبه ، وعزله ؟ » فقال له : « أنت ، أيها الامير ! » ولقد عاش ابن طولون بعد ذلك ١٢ سنة ، ونجمه في صعود ، وعزه في ارتفاع ، حتى أتاه هادم اللذات .

ولا حاجة لنا بالكلام على ما جرى من تخريب قصوره وقطائعه ، وقصور ولده خمارويه وبساتينه . فذلك أمره معلوم ، وأثره مشهور لدى أهل القاهرة .

ب ـ الدولة الايوبية

ان صلاح الدين ، مع ما امتـاز به من جلائل الاعمال التي هي غرة التاريخ وعنوان المجد للانسانية وشارة الفخار للاسلام ، لم يخرج عن هذه القاعدة ، قاعدة تخريب الآثار ، وان كان قد لجأ اليها لاقامة أعمال ذات منفعة عمومية .

ونحن نشير بالاختصار الى ما حدث في عهده ، وبأمر رجالاته :

(١) خرب القصر الكبير والقصر الصغير . وكانا من عجائب الدنيا التي شادها الفاطميون بالقاهرة ، بين الخط الممتد من جامع الحاكم شمالا ، وبين المشهد الحسيني شرقاً ، وبين السكة الجديدة جنوباً ، وبين الشارع المعروف بشارع بين السورين . أما الفاصل بينهما ، فكان رحبة كبيرة في محلها الآن شارع النحاسين .

(٢) هدم سور مدينـة انصنا (Antinoë) بالصعيد . وجعل على كل مركب منحدر في النيل حمل جزء من صخوره ، حتى نقله كله الى القاهرة . وقد قامت في مكانها قرية اسلامية تعرف الآن باسم « الشيخ عبادة » بمركز ملوى بمديرية أسيوط . اما بقايا أطلالها فقد نقضوها كلها واستخدموها في بناء معمل السكر (المعروف باسم الفاوريقة) الذي أنشأه الخديو اسماعيل بمدينة الروضة . وبذلك زالت كل آثارها للوارس من هذا الوجود .

(٣) ثم تقدم واليه وخليفته بعاصمة النيل ، وهو الخصي الطواشي قراقوش

(ومعنى اسمه بالتركي الطائر الاسود) فهدم اهراماً كثيرة كانت بالجيزة ، في حذاء الفسطاس ، ولا يقل عددها عن ١٨ هرماً ، فضلاً عما عداها من الاهرام الصغرى التي كانت تمتد الى الجنوب على مدى ثلاثة أيام

بنى قراقوش بأحجار هذه الاهرام وبصخور انصنا قلعة الجبل ، وسور القاهرة ، وقناطر كانت بالجيزة ، وقناطر بحر أبي المنجا [1]

وقد رأيتُ منذ بضعة شهور بدار السادة القاياتية بالقرب من باب زويلة ، (المعروف عند العامة ببوابة المتولي) حجراً عليه نقوش هيروغليفية ، في حدها الجنوبي وهو جزء من سور القاهرة ، دخل في تلك الدار .

(٤) قال عبد اللطيف البغدادي في رحلته ما نصه : « رأيت بشاطيء البحر ، مما يلي سور المدينة اكثر من أربعمائة عمود مكسرة انصافاً واثلاثاً ، حجرها من جنس عمود السواري ، على الثلث منه او الربع . وزعم أهل الاسكندرية قاطبة انها كانت منتصبة حول عمود السواري ، وان بعض ولاة الاسكندرية ، واسمه قراجا ، كان والياً عن يوسف بن ايوب ، فرأى هدم هذه السواري وتكسيرها ، وألقاها بشاطيء البحر . زعم ان ذلك يكسر سورة الموج عن سور المدينة ، او أنه يمنع مراكب العدو ان تسند اليه » . قال عبد اللطيف : « وهذا من عبث الولدان ومن فعل من لا يفرق بين المصلحة والمفسدة » .

وقد حقق العلامة ڤان برشم Van Berchem ، المستشرق السويسري ، اسم هذا الوالي من حجر عثر عليه مسيو بوتي مدير متحف الاسكندرية سنة ١٨٩٩ وأرسله الى دار الآثار العربية بالقاهرة . وهو محفوظ بها (رقم ٢٥٠٠) . وهذا الحجر مكسور ونقشه مبتور . وله في ذلك بحث مستفيض (راجع تأليفه Corpus t. III. p. 638 - 644) وخلاصته أن صلاح الدين في سنة ٣٨٣ أمر بتقوية سور الاسكندرية ، وربما كان ذلك على اثر معركة انكسر فيها اسطوله بالشام ، وعهد بذلك العمل الى قراجا نايبه بالاسكندرية ، وهو الامير الاسفهسلار زين الدين ابو سعيد الذي عرفناه بهذا الاسم عن المؤرخين وعن الكتابات الاثرية الباقية للآن في أقطاعه بمدينة صلخت وبضريحه بصالحية دمشق .

اذا صح الاعتذار عن هذا النوع من التخريب على عهد صلاح الدين ، فماذا عسانا أن نقول عما ارتكبه ابنه وخليفته على عرش مصر ، وهو الملك العزيز عثمان ؟

(١) الهلال : انظر في الجزء القادم مقالا عن سنمار وزملائه في دول الاسلام

لقد سوّل له جهلة أصحابه ، كما هو المعهود في بطانة السوء ، فصحت عزيمته على هدم الاهرام الثلاثة التي ابقاها أبوه ورجاله بالجيزة بل التي صبر عليها الزمان .

بدأ باصغرها ، وهو الاحمر ، فحشر النقابين والصناع والرجال وعظماء الدولة وأكابرها ، وأنفق المال بغير حساب ، مدة ثمانية شهور . ولأتركنّ الكلمة لشاهد عيان ، هو عبد اللطيف البغدادي ، فقد وصف هذه الجريمة في رحلته بقوله :

« يهدمون كل يوم ، بعد بذل الجهد واستفراغ الوسع ، الحجر والحجرين . فقوم من فوق يدفعونه بالاسافين والاخال ، وقوم من أسفل يتلقونه بالقلوس والاشطان . فاذا سقط ، سُمع له وجبة عظيمة من مسافة بعيدة ، حتى ترجف له الجبال ، وتُزلزل الارض ، ويغوص في الرمل . فيتعبون تعباً آخر حتى يخرجوه . ثم يضربون فيه الاسافين ، بعد ما ينقبون لها موضعاً ، ويبيتونها فيه ، فيتقطع قطعاً . فتسحب كل قطعة على العجل ، حتى تلقى في ذيل الجبل ، وهي مسافة قريبة . فلما طال ثواؤهم ، ونفدت نفقاتهم ، وتضاعف نصبهم ، ووهت عزائمهم ، وخارت قواهم ، كفوا محسورين مذمومين ، لم ينالوا بغية ، ولا بلغوا غاية . بل كانت غايتهم ان شوهوا الهرم ، وأبانوا عن عجز وفشل . وكان ذلك سنة ٥٩٣ (١١٩٧ م) . ومع ذلك فان الرائي لحجارة الهدم ، يظن ان الهرم قد استؤصل ، فاذا عاين الهرم ، ظن انه لم يهدم منه شيء ، وانما جانب منه قد كشط بعضه . وحينما شاهدت المشقة التي يجدونها في هدم كل حجر ، سألت مقدّم الحجارين ، فقلت له : لو بُذل لكم الف دينار على أن تردوا حجراً واحداً الى مكانه وهندامه ، هل كان يمكنكم ذلك ؟ فأقسم بالله تعالى أنهم ليعجزون عن ذلك ، ولو بذل لهم أضعافه » .

وقد روى المقريزي هذه الحكاية بتلخيص ونسب الى عبد اللطيف ان رجلا جاهلا عجمياً خيّل الملك العزيز ان تحت الهرم الصغير مطلباً (أي كنزاً من المال) . أقول وهذه العلة ليست في رحلة عبد اللطيف التي وصلت الينا نسخها (على ما تراه في آخر المقالة) . فلعل المقريزي نقل عن الكتاب الكبير الذي ألفه عبد اللطيف في أخبار مصر وجعله في ١٣ فصلا ، وقد انتزع منه الامور التي شاهدها بنفسه وهي في الاصل في فصلين . وعسى أن يوفق الله بعضنا للعثور على نسخة من هذا الكتاب النفيس !

ج – دولة المماليك

من أعظم ملوك هـذه الدولة ، السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون . فهو الذي أغنى مصر بجلائل الآثار البنائية والفنية ، فضلاً عن ارتقاء الحركة الفكرية في عهده الى الاوج . فهذه مدارسه وجوامعه وخوانقه وأسبلته وكتاتيبه شاهد عدل بانه صاحب القدح المعلى في تخليد محامده ومفاخره على مدى الايام . بل هذه دار الآثار العربية ، قد ضمت بين جدرانها شيئاً كثيراً مما خلفه من المصنوعات الفنية التي لا نظير لها . وأما عن الحركة الفكرية ، فحسبنا القول بان عصره كان عصر الموسوعات العربية . ففي أيامه وتحت رعايته ظهر الكتابان الحافلان اللذان هما عنوان النهضة العقلية والفكرية والادبية لامم الشرق كافة ، ولأهل مصر على التخصيص . أشير بذلك الى :

(١) موسوعات رئيس ديوان الانشاء في أيامه ، وهو ابن فضل الله العمري صاحب « مسالك الابصار في ممالك الامصار » في ٣١ مجلداً

(٢) وموسوعات ناظر الجيش على عهده ، وهو شهاب الدين النويري صاحب « نهاية الارب في فنون الادب » في ٣١ مجلداً ،

وقد بذلتُ كل مرتخص وغال ، وتجشمت ما تجشمت من المتاعب والاسفار في إرجاع هـذه الثمر المصرية الى موطنها ، وقد تكللت اعمالي بالنجاح . وها هما الآن محفوظان بدار الكتب المصرية (الكتبخانة الخديوية ثم السلطانية) ولسان حال مصر يقول على رؤوس الاشهاد : « بضاعتنا ردت الينا ! »

فمع ما امتاز به هذا السلطان الجليل من تلك الاعمال الخالدة التي يكفي عشر معشارها لاحياء الذكر وبقاء الفخر على مدى الدهر ، نراه أشبه الملوك في مصر بسلفه القدير القديم ، رعمساس .

فقد كان دأبه ودينه وديدنه محو آثار من تقدمه ، وتخليد اسمه هو . إذ كان همه الوحيد ان لا تعرف الآثار الاسلامية الا به ، وأن لا يبقى للناس شيء منها ينسب الى سواه .

ونقول من باب الاستطراد انه كان عليماً باللغة الفرنسية ، وكان يخاطب سفراء فرنسا وسياحها مباشرة وبدون ترجمان . أما اسمه فمعناه باللغة التركية الشرقية « الاوزة البرية » . ولذلك تجد هذه الاوزة مرسومة على آثاره المحفوظة

بدار الآثار العربية وغيرها ، لانه اتخذ من مدلول اسمه « رَنْكاً » له أي شعاراً (Blason, Armoirie) .

ونحن نسوق الآن شيئاً مما وصل الينا من أعماله وأعمال رجالاته التي تدخل في دائرة هذا البحث :

(١) من ذا الذي يجهل الخانقاه (التكية) الجليلة التي شادها السلطان بيبرس[1] الجاشنكير ، ذلك الذي اغتصب من الناصر عرشه ؟ ولكن الناصر ، لما عاد الى دست الاحكام ، بطلب الامة المصرية ، صمد الى الأثر الذي أقامه ذلك المغتصب ، فمحا اسمه المرقوم على حجارة الخانقاه في الطراز الذي بظاهرها ، فوق الشبابيك . ثم أمر باغلاقها . واستصفى لنفسه كل الاعيان التي كانت موقوفة عليها . وتركها معطلة الشعائر الدينية ، تنعي مَن بناها نحواً من ١٢٠ عاماً . فلما كانت سنة ٧٢٦ هـ ، ضج الناس ضجيجاً ، وقام الرأي العام في وجه السلطان ، حتى اضطره الى النزول على ارادة الامة . فاعاد فتحها ، وأرجع اليها أوقافها . ولكنه أبقاها عاطلة من اسم بانيها وواقفها . فبقي طرازها مجرداً من اسم صاحبها « بيبرس الجاشنكير » الى يومنا هذا .

(٢) اذا صح لنا أن نتمحل له عذراً عن هذه الفعلة ، بانه اراد الانتقام ممن انتزع منه التاج والصولجان ، فبماذا نفسر ما صنعه مع سلفه الجليل ، وهو السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقداري ، وكان من اكبر الملوك الذين خدموا مصر ورفعوا شأن الاسلام ؟ أتُراه اراد ان ينتقم منه لمجرد المشابهة في الاسم مع بيبرس الثاني ؟

ليت شعري ! أكان اشتراك البندقداري في الاسم مع الجاشنكير سبباً كافياً لهدم القنطرة التي أقامها بيبرس الاول بالقرب من المشهد المنسوب للسيدة زينب ، فوق الخليج (رحمة الله عليه ! فقد داسه الترام ولا يزال يدوسه في كل ساعة ودقيقة) . تلك القنطرة التي كانت في الناصية الشمالية من الميدان المعروف بالسيدة زينب ، وكانت تسمى « قنطرة السباع » لوجود سباع من الحجر فوقها ، اشارة الى بانيها [2] ، فقد اتخذ من اسمه رنكا لنفسه ، كما نراه في كل البقايا الباقية من

---

(١) بي برس ، بيبرس : كلمة تركية معناها السبع أو النمر المثنى ، المزدوج .

(٢) مثل الاسود المصنوعة منذ أيام الخديو اسماعيل على مدخلي كوبري قصر النيل

آثاره ، وكما نراه في قنطرة ابي المنجا الى الان فيما بين القاهرة وقليوب .(١)

كلا ! لم يكن شيء من ذلك ، وانما هي سجية الناصر محمد بن قلاون التي جبله الله عليها : من حب الاستئثار بالآثار ، ومن ميله الى ابادة كل ما هو منسوب الى غيره من الملوك المتقدمين .

نعم ، فقد كان يمر عليها بموكبه في كثير من الاحيان ، فيمتعض من رؤية السباع التي تنطق بفضل بيبرس الاول وتحفظ ذكراه على مدى الاجيال . ولقد حداه ماكان قائما بنفسه من كراهة النظر الى آثار الذين تقدموه من الملوك ، ودعته انفته من تحدث الجمهور بما خلفه غيره من جلائل الاعمال ذات المنفعة العامة ، فأخذ يعمل الحيلة ويدبر الوسيلة حتى اهتدى الى استنباط الاخدوعة التي يموه بها على الناس ويصل بها الى غرضه على اهون سبيل . وما كان غرضه الا هدم القنطرة واعادة بنائها ، ليكون اسمه هو مقرونا بها . فزعم انه يريد توسيعها للرفق بالناس ، نظراً لكثرة الزحام . ولاشتداد حركة المرور .

استدعى الامير علاء الدين علي بن حسن المرواني ، والي القاهرة وشادّ الجهات ، وأمره بهدم « قناطر السباع » وعمارتها أوسع مما كانت بعشرة اذرع واقصر من ارتفاعها الاول . وقد انتهى العمل في جمادى الاولى سنة ٧٣٥ هـ . فجاءت في أحسن قالب . ولكنه — وهذا بيت القصيد — لم يعد اليها السباع التي كانت مزدانة بها . فهامست العامة بالتشنيع ، وحنقت الامة من هذا الصنيع . ومع ذلك ، فلم يجسر احد المقربين اليه من ابلاغه صوت الرأي العام . الى ان شفى احد امرائه الكبار ، وهو المارداني ألطنبغا (وألطن بغا معناه باللغة التركية الشرقية الثور الذهب) . وهذا الامير هو الذي بنى الجامع البديع المعروف الى الا ن باسم جامع المارداني ، بخط الدرب الاحمر . وصل الى علم المارداني ما يتحدث به العامة من ان السلطان لم يخرب « قناطر السباع » الا لكي تبقى باسمه دون صاحبها الأول ، وانه قد رسم

---

(١) بنى هذه القنطرة السلطان بيبرس ووضع عليها رنكه من السباع ولا يزال بها الآن . وقد نقلوا الى دار الآثار العربية حجراً من حجارها منقوش عليه « سبع » بارز ناتيء في الحجر الصلد . وهنالك حجر آخر عليه بخط مملوكي لفظ « الرحيم » من البسملة المكتوبة في أيام بانيها . وقد بطل عمل هذه القنطرة منذ زمان لارتدام البحر تحتها وصيرورته من الارض الزارع . ولكن القنطرة باقية للآن وقد رممتها لجنة الآثار العربية في أيام سمو الخديو السابق الحاج عباس حلمي باشا . وانتهت من الترميم سنة ١٩٠١

لابن المرواني ان يكسر سباع الحجر ويرميها في البحر . فلما عاودته العافية ، ركب الى القلعة ، فسُرّ به السلطان — وكان قد شغفه حباً — فسأله عن حاله وحادثه الى ان جرى ذكر القنطرة . فوقف له وقفة عبقرية ، وكاشفه بالحق ، واضطره الى ارضاء العامة . وذلك ان السلطان سأله : أعجبتك عمارة القنطرة ؟ فقال : والله ! يا خَـوَنْد[1] لم يُعمل مثلهـا ، ولـكن ما كملت ! فقال السلطان : كيف ؟ قال الامير : ان السباع التي كانت عليها لم توضع مكانها ، والناس يتحدثون ان السلطان له غرض في ازالتها لكونها « رنك » سلطان غيره . فامتعض الناصر لذلك وامر في الحال باحضار المرواني ، وألزمه باعادة السباع على ما كانت عليه . فبادر الى تركيبها في اماكنها . وقد بقيت الى أواخر القرن الثامن للهجرة . وكان من شأنها ما سنذكره فيما يلي من جناية متصوف متنطع عليها . وتلك القنطرة قد عرفت فيما بعد بقنطرة السيدة زينب . وذهب اسمها الآن ، بعد ردم الخليج ، كما ذهبت آثارها من قبل .

(٣) ولما كان « الناس على دين ملوكهم » فقـد جاراه واليه على الاسكندرية (الامير بكتوت الخازنداري المعروف بامير شكار — أي الامير المقدم على الصيود الملوكية) . هدم هذا الامير في سنة ٧١٠ هـ قصراً قديماً كان بخارج الاسكندرية ، واستخدم حجارته في بناء رصيف على ساحل البحر ، وقد دك اساسه وربطها بالرصاص الذي استخرجه من سرب كان باسفل ذلك القصر ، ينتهي بالسالك فيه الى قريب من البحر .

(٤) وهكذا جنى احد امرائه بالقاهرة جناية كبيرة على الآثار المصرية .

فقد كان بالفسطاط تمثال عظيم الخلقة ، متناسب الاعضاء ، يمثل امرأة في حجرها مولود ، وعلى رأسها غفيرة تشبه الماجور مثل تلك العمرة التي نراها الآن فوق رأس التماثيل المصرية القديمة الباقيـة بصعيد مصر ومثل ما نراه على رأس تمثال مبتور يمثل الملك طهراق، وهو بدار الآثار المصرية بقصر النيل. كل ذلك من صوان ماتع . وكان هذا التمثال قريباً من قصر الشمع ، في درب عُـرف به وهو « زقاق الصنم » وكان محاذيا لابي الهول في البر الغربي ، على خط مستقيم . كان ظهره الى النيل ووجهه مستقبل شروق الشمس عند طلوعها ، كما هو الحال في ابي الهول . وكان العامة يقولون انها سرية ابي الهول ، وسرية فرعون . وكانوا يعتقدون انها

(١) كلمة فارسية معناها : ياسيد ، يا مولى ، يقابلها Sire في الفرنساوية

طلسم لمنع النيل من الطغيان على ارض الفسطاط ، كما ان ابا الهول طلسم لمنع الرمال عن مزارع الجيزة وعن النيل .

خيل بعض المتهوسين المتخبلين لاحد رجال الدولة ، وهو الامير « بلاط » فأوهموه ان تحت هذا التمثال مطلباً من المال . فانهال عليه بالحجارين والقطاعين حتى ازالوه ، وحتى نزلوا الى الماء ، دون ان يجدوا شيئاً ما . فجعلوا من احجاره عتبات وقواعد تحتانية للعمد الصوان بالجامع الذي انشأه ذلك السلطان بظاهر الفسطاط ، وهو المعروف بالجامع الجديد الناصري ، الذي تم بناؤه في ٨ صفر سنة ٧١٢ . وقد زال هذا الجامع الآن ولم يبق له ادنى اثر . وموضعه في حوش كبير من وقف السادات الوفائية ، يعرف بحوش التكية ، عند فم الخليج .

وربما لا يأثم من يتظنن بان هذا السلطان ، لاحتياجه لتلك القواعد ، ولغرامه بازالة آثار من تقدمه من الملوك ، قد يكون اوعز باغراء ذلك الامير على هذا التخريب والتدمير . وعلى كل حال ، فقد زالت في عصره اعجوبة من اعاجيب فن النحت التمثيلي الفرعوني ، كما زال جامعه هو ايضا من الوجود . ولسنا ندري ماصار اليه امر تلك الاعمدة الصوان التي وصفها المقريزي بنهاية الجسامة والضخامة . وقد روى المقريزي انه عقب كسر ذلك الصنم ، غلب النيل على البر الشرقي فحدثت جزائر في بحر النيل .

(٥) وهكذا جنى ايضاً احد امراء ذلك السلطان الجناية الكبرى على أثر من الآثار المصرية المنقطعة النظير، العديمة القرين. وكانت هذه الجناية «ثالثة الأثافي»

كان بمدينة منف هيكل من ابدع ما خلفه الاوائل في ارض مصر ، وهو المعروف « بالبيت الاخضر »

شاهده عبد اللطيف البغدادي ، ووصفه لنا وصفاً ممتعاً في رحلته ، حيث يقول :

« هو حجر واحد : تسع اذرع ارتفاعا في ثمان طولا في سبع عرضا . قد حُفر في وسطه بيت ، قد جُعل سمك حيطانه وسقفه وارضه ذراعين ذراعين . والباقي فضاء البيت. وجميعه ، ظاهراً وباطناً ، منقوش ومصور ومكتوب بالقلم القديم. وعلى ظاهره صورة الشمس مما يلي مطلعها ، وصور كثير من الكواكب والافلاك ، وصور الناس والحيوان على اختلاف من النصبات والهيآت . فمن بين قائم ، وماش ، وماد

رجليه ، وصافهما ، ومشمّر[1] للخدمة ، وحامل آلات ومشير بها . ينبيء ظاهر الامر انه قصد بذلك محاكاة امور جليلة ، واعمال شريفة ، وهيآت فاضلة ، واشارات الى اسرار غامضة ، وانها لم تتخذ عبثا ، ولم يستفرغ في صنعتها الوسع لمجرد الزينة والحسن . وقد كان هذا البيت ممكّناً على قواعد من الصوان العظيمة الوثيقة . فحفر تحتها الجهلة والحمقى ، طمعا في المطالب . فتغير وضعه ، وفسد هندامه ، واختلف مركز ثقله ، وثقل بعض على بعض ، فتصدع صدوعا لطيفة يسيرة . وهذا البيت قد كان في هيكل عظيم مبني بحجارة عاتية جافية ، على اتقن هندام واحكم صنعة » .

وقد رآه قبله صاحب « تحفة الالباب ونخبة الاعجاب » ووصفه انه « من اخضر كالآس ، فيه صورة الافلاك ، لم نر عجبا أحسن منه » صخرة واحدة . واقول ان هذا الكتاب النفيس موجود بمدينة باريس . ومؤلفه رجل اندلسي ، هو ابو عبد الله محمد بن عبد الرحيم القيسي الغرناطي . طوّف الافاق فزار جزيرة سردانية في سنة ٥١١ ، ودخل ابهر بفارس سنة ٥٢٤ ووصل الى الموصل سنة ٥٥٧ على ما ذكره في كتابه .

ونقل المقريزي في وصف هذا البيت الأخضر انه « من الصوان الاخضر المانع الذي لا يعمل فيه الحديد ، قطعة واحدة . وفيه صور منقوشة وكتابة . وعلى وجه بابه صور حيات ناشرة صدورها[2] . لو اجتمع الوف من الناس على تحريكه ، ما قدروا : لعظمه وثقله . والصابئة تقول انه بيت القمر . وكان هذا البيت من جملة سبعة بيوت كانت عنف للكواكب السبعة » . وافادنا انه كان به « صنم العزيز » من ذهب وعيناه ياقوتتان لا يقدر على مثلهما . وان هذا الصنم قطع في جملة الاصنام المجاورة للبيت الاخضر ، بعد سنة ٦٠٠ للهجرة .

فجاء الامير شيخو العمري وهدم هذا البيت الاخضر بعد سنة ٧٥٠ هـ . ونقل بعض قطعه الى مسجده وتكيته اللذين شيدهما بالقاهرة بخط الصليبة ،

---

(١) في جميع النسخ المطبوعة « مستمر » وهو خطأ ظاهر . لذلك اصلحته

(٢) يشير الى الثعبان الذي نرى صورته منقوشة ومصورة ومرسومة في مختلف الآثار المصرية . وهو المعروف الآن بالثعبان الناشر واسمه عند فلاحي الصعيد : ثعبان القصب ، لكثرة وجوده في مزارع قصب السكر . واسمه العلمي اللاتيني وعند علماء الآثار والعاديات Urœus . وهو من الافاعي السامة جدا . وكان الفراعنة يرسمون صورته على تيجانهم رمزاً للالوهية وللملوكية ؛ وعنواناً على انقسام السماء الى قسمين ، هما : المشرق والمغرب .

صليبة احمد بن طولون . ولا يزالان الى الآن آية من آيات الفن العربي ، ولا يزال بهما بقايا من ذلك البيت الاخضر .

وفي القلقشندي (ج ٣ ص ٣٢٠) ان الامير شيخو أتابك العساكر أراد نقل هذا البيت الاخضر الى القاهرة صحيحاً . فعولج فانكسر . فأمر بان تنحت منه أعتاب (اي عتبات) فنحتت وجعل منها أعتاب خانقاه وجامعه .

أقول وقد كان بديار مصر كثير من البيوت المماثلة له ، منقورة في كتلة واحدة من الصخر . فقد وصف لنا هيرودوت اثنين منهما : احدهما في معبد لاطون بمدينة بوتو Bouto ، المعروفة الآن باسم (ابطو) في مركز دسوق ، بين مليج (المعروفة قديماً باسم متيليس Mélélis) وبين شباس (المعروفة قديماً باسم كباسا Kabasa عند القبط واللاتين واليونان) . وأما البيت الثاني فقد كان بمدينة سايس Sais المعروفة الان بمدينة « صا » و « صا الحجر » بمركز كفر الزيات . وقد وصف الكونت كايلوس (Caylus) هذين الهيكلين في نشرة المجمع العلمي للعلوم الادبية Académie des Belles Lettres في الجزء المتمم للثلاثين من قسم التاريخ صفحة ٢٣ وما يليها[1]، على ما أفادنا العلامة دوساسي ، مترجم رحلة عبد اللطيف . ومن وصفه لهما نستنتج ان البيت الاخضر عنف كان أقل منهما في القيمة والسعة والصنعة .

هذه البيوت هي في الحقيقة نواويس متناهية في الضخامة والفخامة وقد عثر النقابون بجوار « تمي الامديد » (بمركز السنبلاوين بمديرية الدقهلية) على واحد منها يرجع عهده الى الملك أماسيس . وقد بلغ ارتفاعه ٧ أمتار . وهذا يقرب لنا ما رواه هيرودوت مما دعا بعض العلماء لرميه بالمبالغة . فقد قال ان البيت الذي بمدينة « صا الحجر » بلغ طوله من الخارج ٢١ ذراعاً ، وعرضه ١٤ ، وسمكه ٨ . وزاد على ذلك في وصف البيت الذي رآه بمدينة « أبطو » فقال انه مكعب يبلغ طول كل ضلع منه أربعين ذراعاً . ولقد بقي من هذا النوع احدى عشرة قطعة محفوظة بدار الآثار المصرية بقصر النيل وكلها صغيرة الا واحدة مهشمة تدل بقاياها على عظمتها . وقد رسمها ووصفها العلامة فون جونتر رودر Roder الالماني في المجموعة التي طبعتها مصلحة الآثار المصرية بمدينة

---

(١) من سوء الحظ أني لم أجد بكل خزائن القاهرة أدنى أثر لهذه المجموعة النفيسة

ايبسك سنة ١٩١٤ . واذا شئت زيادة التفصيل على ما ورد في هيرودوت ، فارجع الى الفصل ١٥٥ و١٧٥ من المقالة الثانية من كتابه وراجع الجزء الخامس من كتاب « وصف مصر » أي الخطط الفرنساوية (الباب ٣٥ ، واللوحة ٢٩ و ٣٠) والى ما كتبه المحقق سورديل في كتابه الذي أشرنا اليه في بيان « المصادر » بآخر هذه المقالة

د ـ دولة المتنطعة من المتصوفة

لا يعجبن القارئ من وضعي هـذا العنوان . ففي عصور الانحطاط لدى كل الامم ، يستولي بعض المتنطعة من المتصوفة ، باسم الدين ، على عقول العوام . فيكون لهم سلطان وأي سلطان. والتاريخ في جميع الاجيال وفي كل الازمان مشحون بحوادث من هـذا الطراز . ولذلك لا نرى بداً من الاشارة الى حادثتين وقعتا بمصر ، وكان لها أسوأ أثر في تشويه الآثار ، باسم الدين . والدين من ذلك بُراء .

المثال الاول ـ عرفناه عن ذي النون الاخميمي ، واسمه العـدل بن نجا . اشتهر بانه عابد مصر وزاهدها . وكان من رجال التصوف والورع . وفضله معروف وشأنه جليل . وهو غير ذي النون المصري الذي هو من أبناء النوبة ، ولا عبرة بما حدث من الخلط بين الرجلين . ولـكن صاحبنا الاخميمي خرج عن حـده وتعدى طوره . فانه أفسد البربا الشهيرة ببلده ، وكانت عجباً من العجائب على ما ستراه . والاغرب في أمر هـذا الرجل انه ، على ما قيل ، كان يقرأ البرابي وانه رأى فيها حكماً عظيمة . فـكيف استجاز ، مع ذلك ، ان يتولى بنفسه إفساد اكثرها ؟ !

وبربا اخميم هذه قد بقيت بعد افساد ذي النون لها حتى سنة ٧٨٠ هـ . فقام رجل من أهل هذه المدينة يعرف بالخطيب ، كمال الدين ابن بكر الخطيب علم الدين عليّ ، خطيب اخميم . وتجرد لهـا ، تخربها ونال منها مالا . ولـكن روحانيتها انتقمت(١) منه ، فلم يتمتع بالمال ولم يطل أجله . ومن ثم تلاشى امرها وضاع اثرها .

هذه البربا ، قد قال عنها ابو الفدا المعاصر للسلطان الملك الناصر محمد بن قلاون ، في كتابه « تقويم البلدان » انها « من أحسن ما يرى » . ونقل المقريزي أنها كانت مبنية بحجر الرمر ، وطول كل حجر منها خمسة اذرع في سمك ذراعين . وهي

(١) كما اشيع في أيامنا هذه أن روحانية توت عنخ آمون هي التي فتكت في أوائل هذا العام باللورد كرنارفون ، الذي إنتهك حرمة قبره في وادي الملوك .

سبعة دهاليز ، سقوفها حجارة مدهونة باللازورد وغيره من الاصباغ التي يحسبها الناظر كأنما فرغ الدهان منها الآن لجدتها . . .

وقال القلقشندي (ج ٣ ص ٣٢٨) ان « خطيب اخميم أخذ في هدمها والعمارة باحجارها ، ولم يبق الا آثارها وبعض جدرانها قائمة الى الآن » . أي أواخر القرن التاسع للهجرة

ولكن ابن جبير الاندلسي شاهدها بنفسه ووصفها في رحلته سنة ٥٧٨ . ونوه بسواريها الاربعين ، وقال ان « رؤوسها في نهاية العظم والاتقان ، قد نحتت نحتاً غريباً . فجاءت مركبة بديعة الشكل ، كأن الخرّاطين تناولوها . وهي كلها مرقشة بانواع الاصبغة اللازوردية وسواها . والسواري كلها منقوشة من اسفلها الى اعلاها . وقد انتصب على رأس كل سارية منها الى رأس صاحبتها التي تليها لوح عظيم من الحجر المنحوت . . وسقف هذا الهيكل كله من الواح الحجارة المنتظمة ببديع الالصاق ، فجاءت كأنها فرش واحد . وقد انتظمت جميعهُ التصاويرُ البديعةُ والاصبغةُ الغريبة حتى يخيل الناظر انها سقف من الخشب المنقوش . والتصاوير على انواع . . . . فنها ما قد جللتهُ طيور بصور رائقة ، باسطة اجنحتها ، توهم الناظر اليها انها تهمّ بالطيران ، ومنها ما قد جللته تصاوير آدمية ، رائقة المنظر رائعة الشكل ، قد أعدّت لكل صورة منها هيئة هي عليها ، كامساك تمثال بيدها او سلاح او طائر اوكاس او اشارة شخص الى آخر بيده ، او غير ذلك مما يطول الوصف له ، ولا تتأتى العبارة لاستيفائه . وداخلُ هذا الهيكل العظيم وخارجه واعلاه واسفلهُ تصاوير ، كلها مختلفات الاشكال والصفة . منها تصاوير هائلة المنظر ، خارجة عن صورة الآدميين ، يستشعر الناظر اليها رعباً ، ويمتلأ منها عبرة وتعجباً . وما فيه مغرز اشفا (١) ولا إبرة ، الا وفيه صورة أو نقش او خط بالمسند لا يفهم . قد عم هذا الهيكلَ العظيمَ الشأن كله هذا النقشُ البديع . ويتأتّى في صم الحجارة من ذلك ما لا يتأتّى في الرخو من الخشب . فيحسب الناظر ، استعظاماً له ، أن عمر الزمان لو شغل بترقيشه وترصيعه وتزيينه ، لضاق عنه ... وعلى اعلى هذا الهيكل سطح مفروش بألواح الحجارة العظيمة على

(١) الاشفى هي المخرز والمثقب للاسكاف (Alène) . يقال « ابر اشافية » للمخراز الذي يستخدمه صناع الاحذية والخفاف وصناع الجلد في خياطته وخرزه وخصفه

الصفة المذكورة ، وهو في نهاية الارتفاع . فيحار الوهم فيها ، ويضل العقل في الفكرة في تطابيقها ووضعها . وداخل هذا الهيكل من المجالس والزوايا ، والمداخل والمخارج ، والمصاعد والمعارج ، والمسارب والمولج ، ما تضل فيه الجماعات من الناس ، ولا يهتدي بعضهم لبعض الا بالنداء العالي . وهو كله من حجارة مرصوصة على الصفة التي ذكرناها . وبالجملة ، فشأن هذا الهيكل عظيم ، ومرآه احدى عجائب الدنيا التي لا يبلغها الوصف ، ولا ينتهي اليها الحد . وانما وقع الالماع بنبذة من وصفه ، دلالة عليه .... فلا يظن المتصفح لهذا المكتوب ان في الاخبار عنه بعض غلو . فان كل مخبر عنه ، لو كان قساً بيانا أو سحبانا ، يقف موقف العجز والتقصير »

هذا وصف الهيكل في عصر صلاح الدين !

أفرأيت فظاعة الجناية التي شرع فيها ذو النون المصري ، واكملها الخطيب كمال الدين في آخر القرن الثامن للهجرة ؟ انها الجناية بل فادحة عظمى ، نبكيها باسم التاريخ والفنون ، ونندب لها مجد الاجداد الذي أباده اولئك الجهلة المأفونون .

المثال الثاني — حدث في عصر المقريزي ، وفي نفس السنة المشؤومة على الآثار الفرعونية ، سنة ٧٨٠ هـ . ولكنه وقع على الآثار الاسلامية والفرعونية معاً . ذلك انه قام بالقاهرة رجل من المتصوفة المتنطعة ، وهو الشيخ محمد « صائم الدهر » كان مقره بخانقاه سعيد السعداء . فأخذ على نفسه ازالة المنكرات وقمع البدع التي كانت فاشية في عصره . مثال ذلك انه كان بالقاهرة خليج يسمى خليج فم الخور ، يستمد المياه من النيل عند جامع المقس المعروف الان بجامع اولاد عنان . ويلتقي مع الخليج الناصري عند النقطة المعروفة الان (اسماً) بقنطرة الدكة . وكل ذلك قد زال الآن واقيمت عليه المباني الفائقة الغالية ، والدور الدارة .

وكان للناس بهذا الخليج وباخيه الناصري في ايام الفيضان خروج عن الحد بكثرة التهتك والافراط في الملاهي . فذهب صاحبنا المذكور « صائم الدهر » الى شيخ الاسلام البلقيني . فافتاه بوجوب منع المتفرجين من المرور بهما « لكثرة ما يُنتهك في المراكب من الحرمات ، ويُتجاهر به من الفواحش والمنكرات » . فاستصدر مرسوماً من أهل الدولة بتركيب سلسلة على قنطرة المقس في ربيع الاول سنة ٧٨١ . فلم يكن يُسمح بالمرور لغير المراكب المشحونة بالغلال او بالمتاع . وبقي ذلك عشر سنين ، ثم عاد الامر الى ما كان عليه ، حتى ارتدم هذان الخليجان .

ويا ليت ذلك الموسوس المهوس « صائم الدهر » وقف عند هذا الحد ! ولكنه

تجاوزه ، والخش في تجاوزه . فقد تمادى ، حتى اعتدى على الآثار القديمة فشوهها تشويها نذكر منه مثالين اثنين حفظهما لنا التاريخ .

١ ـ سار صاحبنا ، بل عدونا ، باتباعه ومريديه الى الاهرام ، وشوه وجه ابي الهول ، وهشم انفه ، وشعث جسمه ، على ما نراه الان ونأسف له كل الاسف . فلما فعل ذلك المتنطع فعلته ، غلب الرمل على ارضين كثيرة من الجيزة ، على قول المقريزى : «وأهل تلك النواحي يرون ان سبب غلبة الرمل على الاراضي فساد وجه ابي الهول ، لانه كان طلسما لمنع الرمل عن المزارع وعن النيل » .

٢ ـ عمد باحلافه واجلافه الى السباع التي كانت قائمة على القنطرة المعروفة باسمها ، بالقرب من المشهد الحادث المنسوب الان الى السيدة زينب . فشوهها تشويهاً مريعاً كما فعل بابي الهول ، ظناً منه ان هذا الفعل من جملة القربات . وما اجمل استشهاد المقريزى على هذه الفعلة الشنعاء بقوله : ولله در القائل :

وانما غاية كل من وصل   صيد بني الدنيا بانواع الحيل

* * *

وهنا نمسك اليراع ، فقد وصلنا الى العصر الذي ابتدأت فيه المملكة المصرية المستقلة في الانحطاط والزوال . وذلك انه لم يمض عليها بعد ذلك العصر سوى قرن واحد ، حتى تدلت الى الحضيض ، وضاع استقلالها بهجوم العثمانيين عليها في سنة ٩٢٢ هـ . نزلت عن مكانتها السامية فأصبحت ولاية عثمانية ، بعد ان كانت لها السيطرة السياسية والرجحان الدولي ، والكلمة المسموعة والراية المرفوعة .

مضى عليها في هذا الظلام الدامس وهذا الليل الطويل مائتان وثمان وتسعون سنة ، حتى قيض الله لها محييها من العدم ، ومعيد شبابها بعد ان أخنى عليها الهرم ، وهو المرحوم المبرور محمد علي باشا الاكبر . فكانت له اليد الطولى في الاحتفاظ بما لم يتسرب الى اوربا من جلائل الآثار المصرية . فاحيا سنة الملوك العقلاء ، تلك السنة الجميلة التي شاد بها عبد اللطيف البغدادي بقوله : « وما زالت الملوك تراعي بقاء هذه الآثار وتمنع من العيث فيها والعبث بها ، وان كانوا أعداء لاربابها . وكانوا يفعلون ذلك لمصالح : منها لتبقى تاريخاً يتنبه بها على الاحقاب ، ومنها انها تكون شاهدة للكتب المنزلة ، فان القرآن العظيم ذكرها وذكر أهلها ، ففي رؤيتها خبر الخبر ، وتصديق الاثر ، ومنها انها مذكرة بالمصير ، ومنبهة على المآل ، ومنها انها تدل على شيء من أحوال من سلف وسيرتهم وتوفر علومهم

وصفاء فكرتهم ، وغير ذلك . وهـذا كله مما تشتاق النفس الى معرفته وتؤثر الاطلاع عليه »

وأختم الكلام بأن من دواعي الفخر للاسلام ، ان ينبغ مثل ابن جبير وعبد اللطيف ، ويعرفان للآثار حقها وينوهان بمكانتها ويدعوان للاحتفاظ بها ، قبل أن يتفطن أهل اوربا الى هذه الشؤون بستة قرون

احمد زكي باشا

المصادر : (١) تاريخ هيرودوت اليوناني ، عن ترجمته الفرنسية

(٢) رحلة عبد اللطيف البغدادي طبع توبنجن سنة ١٧٩٨ ؛ وا كسفورد سنة ١٨٠٠ . ووادي النيل بالقاهرة سنة ١٢٨٦ ﻫ وترجمتها الفرنسية طبع باريس سنة ١٨١٠ (ولا شك ان المقريزي نقل عن الرحلة الكبرى ، اذ لم نجد لمنقوله أثراً في جميع النسخ التي وصلتنا عن أم واحدة)

(٣) رحلة ابن جبير ، طبعة ثانية بليدن سنة ١٩٠٧

(٤) كامل التواريخ لابن الاثير ـ في حوادث سنة ١٦٩ للهجرة

(٥) خطط المقريزي ج ١ ص ٣١ و١١٥ و١٢٢ و١٢٣ و١٣٥ و١٥٥ و١٥٩ و١٧٢ و١٩٠ و٢٠٤ و٢٢٨ و٢٢٩ و٢٣٤ و٢٤٠ و٣٠٢ ، ٣٤٨ ـ ج ٢ ص ١٤٦ و١٤٧ و١٥٠ و٤١٧ و٤٨٦ و٤٨٩

(٦) صبح الاعشى للقلقشندي (٧) خطط علي مبارك باشا

(٨) تاريخ المشرق للعلامة مسبيرو ، فسره باللغة العربية كاتب هذه السطور

(٩) موضوعات مختلفة وتواريخ متعددة ، وقواميس جغرافية ولغوية

1- Description de l'Egypte (1er édit.) Antiq. Vol. V. Pl. 29 et 30 texte, description t. 2 chap. XXV pages 6 à 10

2 - Journal Asiatique

3 - Mahmoud bey [El Falaki] Mémoire sur l'antique Alexandrie Copenhague 1872

4 - Néroutsos bey: L'ancienne Alexandrie, Etude archéologique et topographique.

5 - E. A. M. de Zogheb : Etudes sur l'ancienne Alexandrie

6 - C. Sourdille. La durée et l'étendue du voyage d'Hérodote en Egypte.